لا يُفلح المفتري في هدفه

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ
كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٨﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ
أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى
ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

(سورة يونس)

من دروس: حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد
المصلح الموعود رضي الله عنه الخليفة الثاني
لحضرة الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٨)

شرح الكلمات:

افترى: فرى الشيءَ فَرْيًا: قطعه وشقه.
افترى عليه بالكذب: اختلقه (الأقرب).
لا يفلح: أفلح الرجل: فاز وظفر بما طلب. أفلح بالشيء: عاش به. أفلح زيد: نجح في سعيه وأصاب في عمله. (الأقرب)
مجرمون: أجرم: أذنب؛ عَظُمَ جرمه. وأجرم عليهم الجريمة: جنى. (الأقرب)

التفسير:

لقد بيّن الله تعالى هنا حقيقتين هامتين: أولاهما؛ أنه لا يمكن أن ينجو من العذاب بحسب القانون الإلهي اثنان:
الأول: من اختلق الكلام من عند نفسه وعرضه على الناس على أنه كلام إلهي.
الثاني: من ناصب العداء لمن يأتي بكلام من الله.
والحقيقة الثانية هي أن المفترين على الله كذبا لا يفلحون أبدًا في مرامهم، بمعنى أن الهدف الذي يذكرونه لبعثتهم لا يتحقق، وأن التعليم الذي يعرضونه للعالم لا يُكتب له الانتشار.
إن القرآن الكريم في معظم الأحيان قد

ذكر الافتراء الذي يعاقَب صاحبُه مقرونًا بكلمة الكذب، مع أن الافتراء وحده جريمة نكراء. وأرى أن الحكمة من وراء استخدام هذا الأسلوب القرآني هي أنه لو افترى أحد على الله تعالى بأمر صحيح حق فلربما لا يعاقَب بالجريمة المذكورة هنا، وإن عُدّ من المجرمين وعوقب بعقوبة أُخرى لا محالة. فعلى سبيل المثال قد يدّعي شخص أن الله تعالى أخبره بالرؤيا أن محمدًا ﷺ رسول صادق. فلو أنه لم يرَ أي رؤيا في الحقيقة فسيُعَدُّ مفتريًا، وإن لم يكن افتراؤه كذبًا، بل هو حق، ولا ضرر في افترائه على الناس، وإنما كَذَبَ كذبةً تخص ذاته، وجاء بعمل دمّر به تقواه هو، فلذلك لا يعاقَب بالعقوبة المذكورة في الآية، بل يلقى من العقوبة ما يلقاه أي كاذب عادي آخر.

ولنتذكر أيضًا أن الله ﷻ قد قال هنا: إن المفتري لا يفلح في هدفه، ولم يقل: إن المفتري لا يمكن أن يجمع حوله فريقًا من الناس أو أنه لن يزدهر ازدهارًا ماديًا. كلا، بل من الممكن تمامًا أن يجمع حوله طائفة من الناس أو أن يحقق ثراءً ماديا. ذلك أن لا أحد من المدّعين يقوم لمجرد جمع زمرة من الناس حوله، وإنما يذكر كل واحد منهم هدفًا روحانيًا من نشر شرع جديد أو تجديد شرع قديم، فما لم ينجح في نيل هدفه الحقيقي هذا فلن

"قد قال هنا: إن المفتري لا يفلح في هدفه، ولم يقل: إن المفتري لا يمكن أن يجمع حوله فريقا من الناس أو أنه لن يزدهر ازدهارا ماديا. كلا، بل من الممكن تماما أن يجمع حوله طائفة من الناس أو أن يحقق ثراءً ماديا. ذلك أن لا أحد من المدعين يقوم لمجرد جمع زمرة من الناس حوله ...."

يعدّ مفلحًا. وهذا مقياس عظيم لمعرفة صدق المدّعين أو كذبهم، ولا يمكن أن يستغله أي كذاب، كما أنه يبرئ الصادقين منهم مما يثار ضدهم من طعن واعتراض. فمثلاً قُتل النبي يحيى عليه السلام، ولكن هذا لم يخلّ بهدفه شيئًا، ولم يقدح في كونه مفلحًا، لأن غاية بعثته كانت تتمثل في أن يعرّف الناس بالمسيح ويمهد السبيل لتصديقه. وقد نال غايته هذه رغم قتله حيث كان حضرته بمثابة عالمٍ برزخي بالنسبة للأمة اليهودية، وقد بُعث إليهم ليهيئ النفوس لقبول المسيح عليه السلام، وقد حقق غاية بعثته هذه حيث بدأ اليهود فعلاً بانتظار ظهور المسيح بينهم، وقام كل أتباع يحيى بتصديق المسيح حتى لم تعد له جماعة مستقلة، بل كلهم انضموا إلى جماعة المسيح عليهما السلام.

وكما ذكرت آنفًا فإن هذا المقياس يكشف زيف وكذب المتنبئين الكذابين، ومثال ذلك زعيم البهائيين "بهاء الله". فلنفترض أنه كان في الحقيقة قد ادّعى النبوّة، وليس الألوهية، وأن عدد أتباعه وصل إلى مئات الآلاف، فإنه مع ذلك لن يُعَدَّ صادقًا بهذا الدليل. ذلك أن غاية بعثته كما بيّن هو بنفسه هي أن يبرهن على أن الشريعة الإسلامية ناقصة ومنسوخة، وأنه قد جاء مكانها بشرع جديد؛ الشرع البهائي. ولكن لم تتحقق له هذه الغاية في أي بيت ولا في أي يوم، بل على العكس من ذلك فقد ازداد إقبال الناس على القرآن الكريم، حتى بدأ كثير من الأوروبيين يصدقون القرآن الكريم اليوم وقد كانوا بالأمس القريب يكذبونه ويكفرون به. فالشريعة الإسلامية التي جاء البهاء لإلغائها ونسخها على حد زعمهم تنال كل يوم رضىً وقبولاً لدى الناس، ولكن شريعته هو قد طُويت بيد النسيان. ولو أن أمريكا كلها اعتنقت البهائية فلن يُعتبر البهاء أيضًا مفلحًا ما لم تنتشر شريعته وتتوطد في العالم كلّه.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩)

شــرح الكلمـات:

دون: نقيضُ فوق؛ أسفل؛ أمام؛ وراء؛ فـوق؛ غـير؛ الـشـريـف؛ الخـسـيـس (الأقرب).

تنبئون: النبأ: الخبر. وفي الكليات: النبأ والإنباء لم يردا في القرآن إلا لما له وقعٌ وشأن عظيم (الأقرب).

سبحانه: سبحان الله: أي أبرئ الـلـه من السوء براءةً (الأقرب).

يشركون: أشرك بالله: جعل له شريكاً (الأقرب).

التفســـير:

الواقع أن الباعـث الحـقـيـقـي عـلـى الإشراك بالله إنما هو الجهل بغاية خلق الإنسان، وأن المشرك يسيء الظن بالله وبنفسه هو. ذلك أن أساس الـشـرك إنما هو الزعم الخاطئ أننا لا نستطيع الوصول إلى الله دون وسيـط، كـمـا أنه هو سبحانه وتعالى لا يقدر عـلـى أن يصل إلينا إلا بوسيـط. والإسـلام يعارض هذا الزعم بكل شدة. إنـه لا يسمح للإنسان أن يسيء الظن بخالقه، كما لا يسمح له بالقنوط من القدرات الكامنة في النفس البشرية. لقد خلـق الله العباد ليصلوا إليه ولا يرضى أبدا أن يحول دونه ودون العباد أحد كائنا من كان.

وقوله تعالى ﴿أتنبّئون الله بما لا يعلـم في السماوات ولا في الأرض﴾ يحتوي على دحض لطيف لعقـيـدة الـشـرك حيـث ذكـر أنـه لـو كـان هـنـاك في السماوات أو الأرض شفيع معين مِن قبل الله يتوسط بينه وبين العباد لجـاء الإعلان عن تعيينه من قبل الله لا من جانبكم أنتم، كما تنشر الحكومـات اليوم أسماء موظفيها الكبار في دورياتها الرسمية. ولكن العجيب أنه بدلا مـن أن يخبر الله بتعيين وسيط مـن عـنـده تهبّون أنتم لتعلنوا للناس أن فلانا قـد صار شريكا وسيطا لله تعالى، في حين أن كافة الأنبياء – ولا يتعدى منصبهم منصب حـامـل خـبر مـن واحـد إلى آخر- يتم تعيينهم دائما من قبل اللـه تعالى وبإعلان منه. فمـا بـال هـؤلاء الذين ترونهم شركاء لله في ملكوتـه تنصبونهم بأيديكم، دون أن ينـهـض على وجودهم أي دليل مـن الـوحـي والإلهام؟ وكأنكـم أول مـن يـعـرف تعيين هؤلاء الـشـركـاء، فـتـقـومـون بدوركم وتخبرون الله بذلك! تأخذون حجرا وتنصبونه في مكان وتسمـونـه إلهاً، أو تختارون إنسانًا، هذا الكائـن الحقير الضعيف، وتعزون إليه قدرات وصفات تخص الله تـعـالى وحـده في الحقيقة!!

وقد ذكر هنا كلاًّ من السماء والأرض لأنهم زعموا أن هناك آلهة في السماء وأخرى في الأرض.

ووضّح بقوله تعالى: ﴿سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾ أنه لا يـلـيـق بـالإلـه الكامل الصفات والمحاسـن أن يخـلـق الإنسان لغاية معينة، ثم يعرقل سبيلـه إلى تحقيق غايته بشتى العقبات التي لا يجد لتذليلها هديا سماويا، وكأنه تعالى بنفسه يبطل عمله ويفسد خطتـه. إن الله بريء من مثل هذه العيوب وأسمى من هذه النقائص.

الفضـائل تصـون المرء مــن صـولات الرذائـل